المبحث السادس

أقسام حسن التعليل

جاء العلماء بعد الإمام عبد القاهر فحرروا هذا الأسلوب وضبطوا قاعدته وشرحوا شواهده ، وأول من فعل ذلك فعرفه بمصطلحه العلمى الذى هو عليه الآن (حسن التعليل) هو العلامة الرازى ، والذى أوعز بتقسيم هذا اللون إلى أقسامه المتعارف عليها الآن لدى المتأخرين من علماء هذا الفن هو العلامة شهاب الدين محمود الحلبى ، وتبعه فى ذلك شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى[١] ، ولكن العلامة الخطيب القزوينى بعدهما أوضح حقيقة هذا اللون البديعى فأبرز أقسامه بشواهدها التى سار عليها من جاء بعده من العلماء[٢] ، ويعد تعريف العلامة الرعينى من بعده أوضح التعاريف لهذا اللون حيث يقول : هو أن تستنبط للشىء علة مناسبة له غير حقيقية مخالفة لعلته الأصلية وشرطها أن تكون على وجه لطيف يحل بها زيادة فى مقصودك من مدح أو غيره[٣] .

وقد درج المتأخرون من العلماء على تقسيم هذا اللون من ألوان البديع إلى أربعة أقسام ، وربما استوحوا ذلك من كلام الإمام عبد القاهر فى كتابه « أسرار البلاغة » حيث أخذوا معظم شواهدهم مما قال .

والإمام عبد القاهر عندما نفى أن يحاط بأقسام هذا اللون فى قوله : « إن ما شأنه التخييل أمره فى عظم شجرته إذا تؤمل نسبه وعرفت شعوبه وشعبه . . . لا يكاد يجىء فيه قسمة تستوعبه وتفصيل يستغرقه ، وإنما الطريق فيه أن يتتبع الشىء بعد الشىء ويجمع ما يحصره الاستقراء . . . . »[٤] .

---

(١) ينظر : حسن التوسل ص ٥٥ ، نهاية الأرب ٧ / ١١٥ .

(٢) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ .

(٣) ينظر : طراز الحلة ص : ٥٦٣ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٧ .

إنما أراد أن ذلك إنما يكون من حيث العلة المذكورة لا من حيث الصفة المعللة ، وذلك لأن مناط الحسن فى حسن التعليل ليس هو الصفة بل العلة المذكورة كما لا يخفى على المتأمل فى ذلك[1] ، ولعل فى ذلك ما يدحض فرية من يظن أن الإمام عبد القاهر كان بلاغيا فقط ، لا بل إنه كان له حسه النقدى وذوقه البلاغى ، وذلك لأنه كان يعيش بمفهوم عصره الذى كان يستخدم علوم اللغة كلها من نحو وصرف وأدب ونقد وتاريخ وكل ما يمت إلى لغة القرآن بصلة ، ليصب بذلك فى نهر البلاغة الفياض ، وما ذلك إلا لأن البلاغة هى الميدان التطبيقى الذى تجرى فى حلبته جميع علوم العربية على نحو من التكامل والتناصر[2] .

وحول تقسيم هذا اللون إلى أربعة أقسام ، يقول العلماء :

إن الوصف المعلل على قسمين : إما : ثابت تريد تعليله ، وإما : غير ثابت تريد إثباته بتلك العلة .

ثم إن الوصف الثابت على قسمين : قسم له علة خفية ، وقسم له علة ظاهرة .

* * *

(١) ينظر : التحبير ص ١٧٤ د . محمود توفيق محمد سعد .

(٢) ينظر : الفكر النقدى فى تراث الإمام عبد القاهر ص ٢٠٣ د . محمود لبدة ط ١٤٠٦هـ ١٩٨٦ م .

وصف لأقسام حسن التعليل

الوصف المعلل[1]

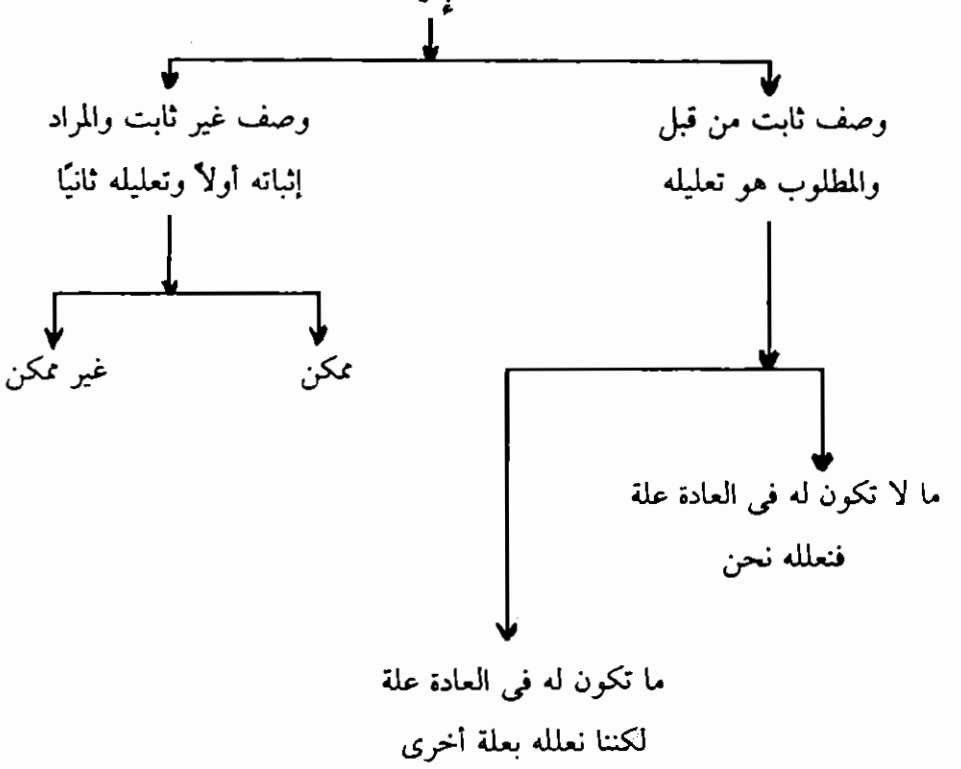

---

(١) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ وما بعدها .

وينظر كذلك البلاغة الاصطلاحية ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ د . عبده عبد العزيز قلقيلة ، ط دار الفكر العربى الطبعة الثانية سنة ١٤١١ هـ ١٩٩١ م .

فأما الوصف غير الثابت فعلى قسمين أيضا : ممكن وغير ممكن[1] .

وبذلك يتضح أن الوصف المعلل فى هذا اللون على أربعة أقسام :

(١) ثابت خفى له علة .　　(٢) ثابت ظاهر العلة .

(٣) غير ثابت ممكن .　　(٤) غير ثابت غير ممكن .

* * *

تفصيل الأقسام

● **القسم الأول** : وهو الذى يكون الوصف فيه ثابتا خفى العلة أو بمعنى آخر: ادعاء علة غير حقيقية لوصف ثابت لا تعرف له فى العادة علة ، وقد سماه أحد الباحثين المحدثين « حسن التعليل الطريف »[2] ، وذلك كقول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما　　حمّت به فصيبيها الرحضاء

فنزول المطر علة ثابتة للسحاب وعلتها الحقيقية غير ظاهرة ، فاستنبط الشاعر لذلك علة مناسبة غير حقيقية ، حصل بها تقوية للمعنى ولطف ، وهى : أن السحاب حسدت كرم الممدوح فحمت بسبب ذلك فسال عرقها وهى الرحضاء[3] .

وكذلك فى قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى　　فالسيل حرب للمكان العالى

فعلة كون الكريم لا مال له علة غير ظاهرة ، وعلله الشاعر بعلة حقيقية وهى أنه جعل الكريم كالمكان العالى لشرفه والمال كالماء ، فكما أن الماء لا يصعد المكان العالى فكذلك المال لا يصل إلى الكريم[4] .

ومنه أيضا ما قاله ابن نباته المصرى فى وصف فرس محجل فأحسن فى ذلك غاية الإحسان :

فكأنما لطم الصباح جبينه　　فاقتص منه وخاض فى أحشائه

---

(١) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ ، طراز الحلة ص ٥٦٣ .

(٢) ينظر : حسن التعليل .

(٣) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٩ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٢ ، طراز الحلة ص ٥٦٤ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٧ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٣ .

لا يكمل الطرف المحاسن كلها حتى يكون الطرف من أسرائه

يقول إن علة الغرة والتحجيل أن الصباح لطم الفرس بين عينيه فابيض فحنق الفرس لذلك فرفس فى أحشاء الصباح فابيضت قوائمه ، فما ألطف هذه العلة وما أشد مناسبتها[1] .

ومنه أيضا قول أبى هلال العسكرى :

زعم البنفسج أنه كعذاره حسنا فسلوا من قفاه لسانه

فكون بعض نور البنفسج خارجا من ورائه صفة ثابتة وعلتها غير ظاهرة ، ولكن هذا الشاعر علل بأنه لما ادعى أنه كعذار هذا المليح ، وكانت هذه الدعوى عندهم باطلة شنيعة سلوا لسانه من قفاه[2] .

ومنه قول بعضهم :

نظر الصباح إلى صفاء جبينه فتعلقت أنفاسه الصعداء

والليل فكر فى سواد فروعه فتشبثت بمزاجه السوداء

جعل الشاعر علة تنفس الصباح غيرته من صفاء جبين هذا المليح ، وعلة سواد الليل أنه حسد فروعه وغلب عليه الحسن حتى غلبت على مزاجه السوداء[3] .

● **القسم الثانى** : وهو الوصف الثابت الظاهر العلة[4] ، أو بمعنى آخر : ادعاء علة غير حقيقية لوصف ثابت تعرف له علة فى العادة ، ويطلق عليه أحد الباحثين المحدثين : « حسن التعليل الجميل »[5] ، وذلك كقول ابن المعتز :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل نالها الوصب

حمرتها من دماء من قتلت والدم فى النصل شاهد عجب

وذلك أن العلة الحقيقية فى حمرة العين هو ما حصل لها من الرمد ، وتلك

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤٧ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٣ .
(٢) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤٧ ، بغية الإيضاح ٤ / ٥٣ ، طراز الحلة ص ٥٦٦ .
(٣) ينظر : طراز الحلة : ص ٥٦٦ .
(٤) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٤
(٥) ينظر : حسن التعليل ص : ٢٦

علة ظاهرة ولكن الشاعر تركها وعلل بعلة أخرى غير حقيقية وهى أن حمرتها من دم من قتلت من العشاق فهى كأثر الدم فى النصل[1] .

وكذلك يعد منه أيضا ما جاء فى قول المتنبى :

ما به قتـــل أعاديه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

العلة الظاهرة فى قتل الملوك لأعدائهم إنما هو دفع ضررهم والانتقام منهم بسبب مخالفتهم ، ولكن الشاعر ترك تلك العلة وأتى بعلة غير حقيقية وهى أن لا يخلف الذئاب ما وعدها من لحوم القتلى[2] .

وقال الخطيب القزوينى : وهذا مبالغة فى وصفه بالجود ، ويتضمن المبالغة فى وصفه بالشجاعة على وجه تخييلى أى تناهى فى الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات العجم ، فإذا غدا للحرب رجت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه ، وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه ليس ممن يسرف فى القتل طاعة للغيظ والحنق[3] ، ومنه قول الشاعر :

أتتنى تؤنبنـــى بالبكـــاء فأهـلا بهـــا وبتأنيبهـــا
تقول وفى قولهـــا حشمة أتبكى بعين ترانى بهـــا
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبهـــا

وذلك أن العلة فى دمع المحب إما إعراض الحبيب أو اعتراض الرقيب ، ولكن الشاعر ترك تلك العلة وعلل بعلة أخرى غير حقيقية ، وهى أن العين لما استحسنت غير المحبوب أدبها المحب ، بإجراء الدموع وهذه علة لطيفة ، إلا أن فيها مؤاخذة على الشاعر : وهى اعتراض المحب بأن عينيه استحسنت غير محبوبه ، وذلك لا يليق بالمحب حبا حقيقيا[4] .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٤٣ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ ، طراز الحلة ص ٥٦٩ .

(٢) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٥٨ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ ، طراز الحلة ص : ٥٧٠ ، معاهد التنصيص ٣ / ٥٣ .

(٣) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٤ .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٦٢ ، ١٦٣ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ ، طراز الحلة ص ٥٦٩ ، ٥٧٠ .

ومن ذلك القسم أيضا قول الشاعر :

صبحته عند المساء فقال لى ماذا الكلام وظن ذاك مُزاحا

فأجبته إشراق وجهك غَرَّنِى حتى توهمت المساء صباحا

فالعلة الظاهرة فى كونه صبّحه عند المساء إنما هى الغلط والدهش ، ولكن الشاعر علله بأن وجهه لما أضاء له توهم المساء صباحا[1] .

● **القسم الثالث** : وهو الوصف غير الثابت مع إمكانه[2] ، أو بمعنى آخر : أن تدعى علة غير حقيقية لوصف غير ثابت ولكنه ممكن وقد أطلق عليه أحد الباحثين المحدثين اسم « حسن التعليل المستظرف »[3] ، وذلك كقول مسلم بن الوليد :

يا واشيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق

وقد أخذ الخطيب القزوينى هـذا الشاهد من بدر الدين بن مالك فى قوله : « فإنه لما غاير الناس وأغرب فى تحسين إساءة الواشى ، رأى أنه قد أتى بما يستبعد صدقه فاستدل على صحته بدعوى أن الإساءة حصلت تجاه إنسان عينه من الغرق بالدمع لامتناعه عن البكاء حذرا من الواشى ، وخوفا على محبوبه ، وما حصل ذلك فهو حسن ، فأثبت صحة تحسين الإساءة بإثبات علتها[4] .

وقال العلامة الرعينى فى بيان حسن التعليل فى البيت المذكور : فاستحسان الإساءة وصف غير ثابت إلا أنه يمكن وقد علل ذلك بأن إساءة الواشى تمنع المحب من أن يبكى خوف الفضيحة فيكون ذلك سببا لسلامة إنسان عينه من الغرق فى ماء الدمع ، وإذا كانت الإساءة سببا فى السلامة كان لاستحسانها وجه[5] .

ومن ذلك القسم أيضا قول الشاعر :

وأهوى الذى أهوى له البدر ساجدا ألست ترى فى وجهه أثر الترب

فسجود البدر صفة غير ثابتة وهى ممكنة ، وقد علل ذلك بوجود أثر التراب فى صفحة البدر وهو يعنى به السواد الذى يرى فيه[5] .

---

(١) ينظر : طراز الحلة ص : ٥٧١ . (٢) الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٥ .

(٣) ينظر : حسن التعليل ص : ٢٦ .

(٤) ينظر : المصباح ص : ٢٤٣ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ ، طراز الحلة ص ٥٧٣ ، معاهد التنصيص ٣ / ٥٤ .

(٥) ينظر : طراز الحلة ص ٥٧٣ .

ومنه كذلك قول الشاعر :

جزى الله الشـــدائد كل خير وإن جرعتنى غصـصى بريقى

وما شـــكرى لهـــا إلا لأنى عرفت بها عدوى من صديقى

وذلك أن شكر الشدائد صفة غير ثابتة إلا أنها ممكنة وعللها الشاعر بأنه لما علم بها العدو من الصديق استحقت الشكر عنده[1] .

ومثله أيضا قول بعضهم :

عداتى لهم فـــضل على ومنـة فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا

هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتهـــا وهم نافسونى فاكتســـبت المعاليا

فصفة الأعداء بالفضل والمنة صفة غير ثابتة مع إمكانها ، ولكن الشاعر عللها بأن الأعداء لما كانوا يبحثون عن زلات الإنسان ، كان ذلك سببا لعدم الوقوع فيها ، وكانوا ينافسونه فيحتاج إلى اكتساب الفضائل ليظهر عليهم ، فعدّ ذلك فضلا منهم ومنّة[2] .

ومنه قول ابن سناء الملك :

علمتنى بهجرها الصبر عنها فهى مشكورة على التقبيح[3]

وكذلك ما قاله أسامة بن منقذ :

قل للملول الذى تجنى وخان من بعد ملك رقى

أحسن بى لا عن اعتماد غدرُك إذ جاد لى بعتق[4]

وقول الشاعر أيضا :

أهلا وسهلا بالمشـــيب فإنه سمة العفيف وحلية الزهاد[5]

● **القسم الرابع** : وهو الذى تكون الصفة فيه لا ثابتة ولا ممكنة ، لأنه لا يتصور ذلك منه لأنه غير حى[6] ، أو بمعنى آخر : أن تدعى علة غير حقيقية لوصف غير ثابت ولا ممكن ، وقد أطلق أحد الباحثين المحدثين عليه اسم : « حسن التعليل البديع » وقال : « وهذا الأخير يعد أرقى الأنواع »[7] .

---

(١) ينظر : طراز الحلة ص ٥٧٣ . (٢) ينظر : السابق ص : ٥٧٤ .

(٣ ، ٤ ، ٥) ينظر : معاهد التنصيص ٣ / ٥٥ .

(٦) ينظر : الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ . (٧) ينظر : حسن التعليل ص: ٢٧ .

وذكر العلماء لهذا القسم شاهدا واحدا لازال يتكرر فى كل كتب البلاغة ؛ وهو معنى بيت فارسى ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

وذلك أن نسبة النية للجوزاء غير ثابتة ولا ممكنة لأن الإرادة لا تكون إلا من حى ، والجوزاء ليست بحية فلا يمكن فيها النية والإرادة ، وقد نسب الشاعر لها النية ، وعلل ذلك بأمارة الخدمة وهى عقد النطاق ، لأن الجوزاء صورتها صورة شخص قد انتطق[1] . وعلق على ذلك العلامة سعد الدين فى المختصر بقوله « وفيه بحث : لأن مفهوم الكلام هو أن نية الجوزاء خدمة الممدوح علة لرؤية عقد النطاق عليه أعنى لرؤية حالة شبيهة بانتطاق المنتطق كما يقال : لو لم تجئنى لم أكرمك ، يعنى : أن علة الإكرام هو المجىء وهذه صفة ثابتة قصد تعليلها بنية خدمة الممدوح فيكون من الضرب الأول .

وما قيل : إنه أراد أن الانتطاق صفة ممتنعة الثبوت للجوزاء وقد أثبته الشاعر وعللها بنية خدمة الممدوح ، فهو كونه مخالفا لصريح كلام الخطيب القزوينى فى الإيضاح ، ليس لشىء لأن حديث انتطاق الجوزاء أعنى الحالة المشبهة بذلك ثابت محسوس والأقرب أن يجعل « لو » هنا مثل « لو » فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2] ، أعنى الاستدلال بانتفاء الثانى على انتفاء الأول ، فيكون الانتطاق علة كون نية الجوزاء خدمة الممدوح أى دليلا عليه وعلة للعلم به مع أنه وصف غير ممكن[3] .

وأجيب عن ذلك : بأن الانتطاق المذكور ليس صفة ثابتة بل هى صفة غير ممكنة الوقوع ، إذ الجوزاء ليس مما ينتطق بل وصفها بالنسبة للكواكب التى حولها تشبه الانتطاق[4] .

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٩ ، الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ٥٦ ، طراز الحلة ص : ٥٧٥ ، معاهد التنصيص ٣ / ٦٧ .

(٢) سورة الأنبياء : آية رقم ٢٢ .

(٣) ينظر : المختصر على التلخيص - بشرح التلخيص ٤ / ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٤) ينظر : عقود الجمان ٢ / ١٢٤ لجلال الدين السيوطى شرح عبد الرحمن بن عيسى العمرى ط ثانية مصطفى الحلبى سنة ١٣٧٤ هـ ، ١٩٥٥م، وعلى ذلك فإنه إذا قلنا إن الخدمة علة الانتطاق كان البيت من القسم الأول لأن الصفة وهى الانتطاق ثابتة ولها علة خفية =

وقد ذكر العلامة عبد الرحيم العباسى أمثلة لهذا القسم فوق ذلك الشاهد الذى تكرر تداوله لدى علماء البلاغة السابقين وفى مؤلفاتهم ، من ذلك قول التهامى :

لو لم يكن أقحوانا ثغر مبسمها ما كان يزداد طيبا ساعة السحر[1]

وقوله أيضا :

لو لم تكـن ريقته خمر لما تثنى غصنه وهو صاح[2]

وقول الأمير مجير الدين بن تميم فى مليح وقّاد :

لاموا على الوقاد فى حسنه وحسـنه باللـوم يزداد

لو لم يكن فى حسنه كوكبا ما كان أمـس وهو وقاد

وقول السرى الرفاء :

موقف لو لم يكن نارا لم تكن زرق عواليه شرر

ومن أمثلته الحسنة أيضا قول محمد بن هانىء :

قد طيب الأفواه طيب ثنائه من أجل ذا تجد الثغور عذابا

إلى غير ذلك من الشواهد المبثوثة فى ثنايا كتب الأدب والبلاغة[3] .

هذا وقد أشـار الإمام عبد القاهر إلى أهمية الصنعة فى ذلك اللون البديعى فقال : « والصنعة إنما يمد باعها وينشر شعاعها ويتسع ميدانها وتتنوع أفنانها حيث يعتمد الاتساع والتخييل ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ويذهب بالقول مذهب المبالغة ، والإغراق فى المدح والذم والوصف والبث والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض وهنا يجـد الشاعر سبيلا إلى أن يبدع ويزيد ، ويبدع فى اختراع الصور ويعيد ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا ، ومددا من المعانى متتابعا ، ويكون كالمغترف من غدير لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهى[4] .

= والشاعر تخيل لها علة غير حقيقية وهى نية خدمة الممدوح ، فالبيت على وجه من الضرب الأول ، وعلى وجه آخر من الضرب الرابع . » ينظر التحبير : ص ١٧٧ د. محمود توفيق محمد سعد) .

(١) ينظر : سر الفصاحة : ص ٢٦٩ ، معاهد التنصيص ٣ : ٦٨ .

(٢ ، ٣) ينظر : معاهد التنصيص ٣ / ٦٨ وما بعدها .

(٤) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٣٤ .

فهذا اللون يدل على براعة الشعراء وقدرتهم على تكييف ما يلاحظونه من موضوعات وعلى تعديلها وتشكيلها ، وبالتالى القدرة على تحويل الواقع المادى إلى مثال حىّ [1] .

فهو يعتمد على المهارة الذهنية والاتكاء على الخيال فى تطريز أثواب جميلة من العلل يقبلها العقل وتطمح إليها النفس ·

* * *

(١) ينظر: النقد التحليلى عند عبد القاهر الجرجانى ص : ٢٦٦ ، د · أحمد السيد الصاوى ط · الهيئة المصرية العامة للكتاب ·